ومثل هذا مدارس الغربيين في الأدب والفن التي أشرنا إليها، فهي مذاهب خاصة لها قواعدها وأصولها وأسسها الخاصة التي تختلف كلّ الاختلاف في أي منها عن الأخرى. وقد استعاروا لهذه المذاهب كلمة «School» الإنكليزية أو «Ecole» الفرنسية أو نظائرهما في سائر اللغات الغربية. والأخذ عن الغربيين في عصرنا طريف ممتع، وقد نندفع في هذا الأخذ بحق وبغير حق حرصاً على الاستجابة إلى العصر بحجة «المعاصرة» واحترازاً من أن يوصم الدارس بالجمود والرجعية ونحو ذلك. وهذا النوع من «التلقي» قد يحمل الضيم على العلم.

أقول: نظر أصحابنا إلى الموروث من علم النحو واختلاف الأوائل في شيءٍ يسير منه يمس الفروع ولا يقرب من الأصول، فأخذوا بالسعي نحو «المعاصرة» فأخذوا لفظ «المدارس» لتؤدي ما شاع لدى الأوائل من استعمال «مذاهب» أو «طرائق». وكان من ذلك: مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة ومدرسة بغداد، وتوسع آخرون فكان لهم مدرسة في كل بلد من بلدان العالم الإسلامي ومن ذلك مدرسة الشاميين في النحو، ومدرسة المصريين، ومدارس إفريقية في تونس والمغرب ومدرسة الأندلسيين. ولا أستبعد أن يبلغ الهوى بأحد من قبيل هؤلاء الدارسين فيزعم أن للموصليين «مدرسة» في النحو وأن للبلاد التي أظلها الإسلام بظله «مدارس» في هذا العلم.

ولنعد إلى المشهور قديماً من المذاهب النحوية لنقول إننا كنا نجد في كتب طبقات النحويين، وفي كتب النحو ومصادره أن هذا الرأي قال به البصريون، وأنكره الكوفيون، وقد نجد أن فلاناً من النحاة على «مذهب» البصريين، وأن فلاناً على مذهب أهل الكوفة. وقد نجد أحياناً أن «البغداديين» ذهبوا مذهباً خاصاً. ولا نعرف على وجه من العلم الثابت من هؤلاء البغداديون، فقد تجد فيهم ثعلب وابن قتيبة وابن السكيت وغير هؤلاء. والتحقيق في هذا أن عبارة «البغداديين» تعني